



# نحو مشروع ثقافي عربي لمواجهة الهجمة المعادية

## د. نادية خوست

بحماية الاتفاقيات مع العدو كاتفاقيات دولية. وها هي الأرض العربية تحترق بأنواع من الحرب العربية - العربية: باسم الوحدة في اليمن، وباسم الاستقلال الذاتي في العراق، وباسم الإسلام في الجزائر ومصر. فيقسّم الوطن إمارات بل حارات، ويدمر السلاح العربي، ويجري الدم بعيداً عن مكان الاستشهاد. وتستنزف زيادة السكان ليتحقق الحلم بأرض دون شعب.

ويذكرنا ذلك بإنجازات الشمال يوم ابتكر قنابل تدمر البشر لكنها تبقى الخيرات المادية للمتصرين. فمن صفات تلك القنابل أن تفرض علينا احتفالات بإحراق المثل الإنسانية والوطنية، وأن نخلع ضمائرنا، ونلغي تراثنا الوطني، وندمر ما أسست عليه البنية الروحية العربية. لذلك نلتفت إلى الثقافة ونفحص عودها، ونسأل كيف تقاوم غزو الروح، وكيف تستطيع أن تواجه الواقع. وأي واقع، تُغيّر فيه حتى المياه اتجاهاتها! وقد عرفنا قبل اليوم الحروب القاسية، لكن بلادنا لم تعرف مثل ما يفرضه اليوم المشروع العالمي، لأن العالم لم يعرف قبل اليوم التخطيط العلمي لتغيير العالم والتدخل في الضمائر والبيوت. ولعل الاشتراكية التي استقرت ثلاثة أرباع

الجديد في الشرق الأوسط، فتوفر الجيش الإسرائيلي الذي تنهكه الصدمات التفصيلية. وقدم الشمال المشروع كاتفاقية دولية محصنة بالتوقيع الخارجي من تهمة التفريط والخيانة العظمى أو الهزيمة.

فهل التطبيع علاقات بين جانبيين متوازنين؟ لا يسمي العالم الجديد الوقائع بأسمائها! لم يسم الحرب العالمية الثالثة التي طوت المعسكر الاشتراكي حرباً بل وفاق. ولا يسمي مد إسرائيل الكبرى بالاتفاقيات احتلالاً، بل تطبيع. تُقدم الهزيمة الكبرى كانتصار أو حل سياسي عاقل، واقعي. وتنظم لما كان يسمي في العالم القديم خيانة عظمى، احتفالات علنية. فيصيب ذلك العرض المسرحي هدفاً آخر: يفكك روح العربي ويرسخ يأسه، ويلغي حلمه.

في الهزائم العسكرية يلجأ المقاومون عادة إلى الجبال أو الكهوف أو الغابات، فتظل للمقاومة مساحة من الأرض تبدأ منها. لكن المشروع الشمالي الصهيوني للشرق الأوسط يلغي الكهوف التي قد تلجأ إليها المقاومة العربية، ويوفر على المحتلين استنزاف قواهم العسكرية، فينصب أمام المقاومة العربية المحتملة قوى عربية تلتزم

التطبيع في اللغة من الكلمات الوافدة، من جنس كلمة «وفاق» التي دُشنت بها الحروب الطاحنة بين القوميات والطوائف. والغزو الذي ترفرف فوقه القرارات الدولية، ومن جنس كلمة «السلام» الذي اقتلع المعسكر الاشتراكي والتوازن.

فهل يمكن أن تكون العلاقات طبيعية بين المحتلين وبين أهل البلاد المحتلة؟ هل أُلغيت الموضوعات الصهيونية التي أسست عليها إسرائيل، وأعلن استنكار الفكر التوراتي والحلم بأرض الميعاد؟ بل يعلن توطين إسرائيل، وتوضع الأثرية العربية في محمية ذاتية، لتسود الأقلية اليهودية الوافدة على المياه والثروات والأسواق والأرض العربية. ويواكب احتفالات التوقيع على التطبيع القصف الذي يحرق جنوب لبنان، والمذابح. لكن هذه التفاصيل في السياق.

كانت الحرب العالمية النووية المدمرة مستحيلة، فكان لابد من أسلوب آخر يفكك المعسكر الاشتراكي من مركزه. وكانت إسرائيل الكبرى صعبة ومكلفة بالقوة العسكرية. فكان لابد من صيغة توظف، في المشروع الإسرائيلي، المال العربي والثروة العربية والعمل العربي، وتحكمها من منبها إلى مصبها، وتقيم من العرب شرطة النظام

# الحسابات الجديدة

## مقالات في الظاهرة

### القضية

#### ادوار الخراط

دار الآداب

ضميرنا. لذلك يتصل الدفاع عن الوطن اليوم بالدفاع عن الحق في الشعور الوطني والإنساني، وعن الحضارة التي ترفض العنصرية وتدين المجازر، وعن حصانة مسار النسخ بين الأجيال، ورموز الذاكرة التاريخية.

يفترض أن يكون المشروع الثقافي العربي مركزاً، ومثابراً، يتجاوز الطريقة المعتمدة في المناسبات، ويرقى إلى حاجة المواطن العربي الذي ما عاد يستسيغ الكلام المرتجل الكثير، الهش... ويتجاوز الشكل الإعلامي السياسي الممل، وينبه إلى الدراسات الجذبة التي ستحكر بها إسرائيل التاريخ العربي والعثماني والإسلام... وينبه إلى أن أجيالاً جديدة عربية تستنبت دون وعي بالخطر، غارقة في فقرها وهمومها، أو ملوثة بالمعايير الجديدة طائرة على الأحلام الجديدة.

يفترض أن يبدأ من دراسة الوضع الثقافي، ليتبين رموزه الملتبسة، ويجلو مسألة الحرية وارتباطها بالثوابت الوطنية، ودور التراث الوطني في المناعة، ومقتله في التعصب والتطرف الديني والطائفي. ولا تستطيع صياغة مثل هذا المشروع إلا جهة واسعة من المفكرين المخلصين للثوابت الوطنية، تقدم الكفاءة والصدق والجرأة على الانتماءات التفصيلية.

العربية كلها، وعلى رسم مسارات جديدة للأهوار والينابيع والبحيرات، وعلى تغيير اتجاهات السير في الطرقات، وعلى فتح حدود المدن لمن كنا نسميه العدو. نتفرج على الاتفاقات التي يوقع عليها المسؤولون العرب وسادة العالم الجديد. وقد أصبح ما كنا نسميه خيانة، سياسة مبررة بالمصلحة الوطنية العليا، وبالنظرة السياسية العميقة. تسلم للعدو المدن والطرقات. وتبتكر قوى ذات مصلحة في الواقع الجديد. سيكون العدو في كل مكان: في زجاجة الكوكا كولا، والقميص، وحب الفاكهة، في خيوط الحياة اليومية. وسيكون له صحفيوه ومفكروه وكتابه وسينمايوه وجوازه. وهل تخلف متفوه عن دعوتنا من منصة غرناطة، إلى توطين العدو في الضمير؟

لذلك نحتاج إلى مشروع ثقافي وطني متماسك: لحماية الأمل، للدفاع عن الكرامة الوطنية، وعن ذاكرة الحركات الوطنية والاجتماعية والسياسية، وعن الذاكرة التاريخية، وعن الرموز التي يجب أن تنتقل في حياة الأجيال.

لابد من مشروع للمقاومة الثقافية العربية! فأجهزة الإعلام العالمية تتوغل في البيوت. والتقاها التي رعتها المؤسسات العربية رصيد العدو. وقد استنبتت مواقع ثقافية ستخرق الحدود إلى العدو باسم الحضارة والحرّيات، كما استنبتت مواقع ظلامية قد تكسر الصيغ السياسية. ولا نجهل أن المثقفين الذين نادى بهم لمواجهة الاحتلال الجديد، ليسوا ممن سمته أو رعته منجزات الأمل، بل عانوا حتى الأمل القريب بما يناسب صلابتهم، من منع السفر ومنع العمل.

المشروع الثقافي الوطني أمام واقع متفرد. فالغزو لا يقتحم الحدود الوطنية فقط، بل الضمير نفسه. ويا للدقة في صياغة أدونيس! فافتراحه هو أن نبحث عن حق العدو في خيوط هويتنا، وأن نوظنه في

القرن، ورسخت علاقات عالمية غير معروفة قبلها، تثير الرعب من عودتها نظاماً عالمياً. فيرمى العالم إلى الظلمات، ليكسب النظام العالمي الجديد مزيداً من العمر.

نقلت الحروب الصليبية بلادنا المتحضرة المتقدمة على أوروبا إلى ظلام القرون الوسطى. لكننا نتبين خلالها محوراً ثابتاً، يعبر حتى مناورات الحكام الضعفاء والمتهاونين: هو إنكار الاحتلال، والإيمان بأن الغرباء ليسوا من المنطقة. نرى سبي المدن وبيع أهلها عبيداً، لكننا لا نرى مصادرة قرارها السياسي، والإصرار على جمع حكماها على منصة واحدة ليوقعوا الاعتراف بأن العدو شريك أو حليف. ونرى المراكز والأطراف تفلت من المحتلين، وتثبت القيادات التي تقاوم الغزو، والشعراء ينشدون القصائد في بسالة المقاومين. ولعل ذلك الزمن فحوص في دقة كي يحكم المشروع المقترح للشرق الأوسط فلا يتكرر طرد الغزاة.

وآية رياح تناسب العنصرية أكثر من هذا الزمان؟ حل العصر الذي تحدت عنه الكاتب الروسي دستوفسكي: العصر الذي يسود فيه المرابي اليهودي، فتنسد الأخلاق، وتنتشر الفوضى والشراسة والقسوة، وتمزق العلاقات الإنسانية، وتحكم العالم سطوة المال. ونحن فيه في منطقة الصدام وقت الغروب. وقد ضيعنا الزمن الذي حكمته علاقات عالمية أخرى، ولم نغرس قوى راسخة وعلاقات مؤهلة للدفاع عن النفس. والثروة العربية أنعشت العلاقات الرأسمالية العالمية ورتقت المؤسسات الغربية، ولم تسد في مشروع عربي. لم يفعل العرب ما فعلته الصهيونية، التي جتت أموال العالم، والقوة العلمية والبشرية والمهارة المالية والسياسية اليهودية في خدمة قضيتها.

أمام الثقافة هذا الواقع! ونحن اليوم نساق شهوداً على التنازل عن الخريطة